من ينصف المرأة ؟

محمد بن عبد الله الحمود

مصدر هذه المادة :







بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده.. وبعد:

لقد دأب دعاة تحرير المرأة عبر وسائلهم المختلفة على تصوير المفاهيم الإسلامية الخاصة بالمرأة تصويرًا يحط من قدرها، وينتقص من صلاحيتها، ويشكك في قدرتها على الاستجابة لمتطلبات الحياة العصرية.

وقد سلكوا في ذلك مسالك كثيرة ومتنوعة تصب كلها في النهاية في قالب واحد وهو أن المرأة المسلمة عامة – وفي هذه البلاد خاصة – مهيضة الجناح، مسلوبة الكرامة، مهانة مزدراة، وأنها شق معطل ورئة مهملة، وأن الرجل استأثر دونها بكل شيء وأنها ليست كالمرأة الغربية التي فاقتها بكل شيء ونالت من الحقوق والحرية والسعادة – بزعمهم – ما لم تنله هي إلى غير ذلك من الافتراءات والادعاءات الكاذبة التي يطلقها أدعياء التحرير بين فترة وأخرى بقصد التغرير بالمرأة المسلمة وتشجيعها على التمرد والتفلت من دينها وتقاليدها الإسلامية التي تربت ونشأت عليها، ولا شك أن كل ذلك كذب وافتراء وبهتان وتجنِّي على الحق ومخالف للصواب، وإلا فإن المتأمل في واقع المرأة المسلمة يرى بكل وضوح كيف أن الإسلام قد عني بالمرأة أعظم العناية والاهتمام، وأحاطها بالإجلال والإكرام، والتقدير والاحترام، وصانها من الذل والامتهان وحفظها من الفساد والإجرام..

لقد جاء الإسلام والمرأة مهضومة الحقوق كسيرة الجناح، تُورث كسقط المتاع، فملَّكها بعد أن كانت تُملك، وورَّثها بعد أن كانت تُورث، وأحياها بعد أن كانت توأد وتقتل.

جاء الإسلام والمرأة في أسفل الدرجات وأحط الدركات فانتشلها وجعلها في المكان اللائق بها.

انتشلها من السفح إلى القمة وأعطاها حقوقها كاملة غير منقوصة، فصارت في دين الله معززة مكرمة، وحدد أعمالها وواجباتها بما يتناسب مع تكوينها وطبيعتها بعيدًا عن الرجال وعن كل ما يخدش حياءها ويفسد أخلاقها حفاظًا عليها ورحمة بها واحترامًا وتقديرًا لها، كما حفظ الإسلام للمرأة حرية التصرف في مالها الخاص دون أن يكون للزوج حق الوصاية عليه، وكطفل لها حق المهر وحق الميراث وحق حضانة الأطفال، كما اشترط معاملة الزوجة بالمعروف، بل جعل رسول الله ﷺ خير الناس وأفضلهم، أفضلهم معاملة لزوجته وأهل بيته، فقال عليه الصلاة والسلام: «**خيركم خيركم لأهله، وأنا خيركم لأهلي**» [رواه الترمذي وقال حسن صحيح كما أخرجه البيهقي والطبراني].

وعلى كثرة الشرائع والملل السماوية والأرضية إلا أنه لم يأت شرع أكرم المرأة وسَمَا بها وارتقى بماكنتها كشرع الإسلام، سواء كانت أمًا أو أختًا أو زوجة أو بنتًا أو بأي منزلة من منازل القربى.

فهي إن كانت أختًا شرَّفت أخاها وإن كانت بنتًا وقد أحسن الأب تربيتها تكن له سترًا من النار، وإن كانت زوجة فهي نصف الحياة، وإن كانت أمًا « **فالجنة تحت أقدام الأمهات**»، وإن كانت جدَّة تحولت إلى ملكة في كيان الأسرة بين أولادها وأحفادها.

وبنظرة واقعية لوضع المرأة في الغرب نرى الفارق الكبير بينها وبين المرأة المسلمة.

ومن ينظر إلى واقع الغرب وقيمة المرأة عندهم؛ يجد مصداق ذلك. فهي إن كانت بنتًا تتقاذفها أيدي الذئاب البشرية دون حميَّة من أحد، وإن كانت زوجة فهي لا تأوي إلى بيتها إلا كالَّة مرهقة لتشارك زوجها في دفع مصاريف البيت وأقساط السيارة، فقيمتها بمقدار ما تدفع، وإن كانت أمًا فأولادها غالبًا ما يقذفونها في النهاية في إحدى دور الرعاية الاجتماعية دونما رحمة أو تقدير.

فكم هو البون شاسعًا بين المرأة في المجتمع الإسلامي وبين تلك المجتمعات التي أذلت المرأة وامتهنتها ورضيت بسفورها وتبرجها واختلاطها بالرجال، وجعلت لها حرية منفلتة بلا ضابط أو رادع فانتكست فطرتها وسلبت كرامتها وأصبحت سلعة رخيصة تباع وتشترى ثم ترمى بعد أن تنتهي صلاحيتها بلا شفقة أو رحمة.

والمرأة في هذه البلاد ليست بأقل من مثيلاتها في المجتمعات الأخرى كما يدعى المبطلون، بل إنها قد تفوقت في كثير من المجالات على نساء تلك المجتمعات.

وقد فاقت الجميع؛ لأنها تسير بخطى ثابتة موازنة بين طموحها الذي يدفعها للتعلم والعمل الجاد وبين المحافظة على تعاليم دينها القويم.

ولقد قرأت كاتبة ألمانية حقوق المرأة في الإسلام، وهي التي تعرف ما ينال بنات جنسها في المجتمع الغربي من الإشارة والانتقاص باسم المدنية والحرية، كما كانت من قبل مهانة ذليلة، فصار بين الحالتين إفراط وتفريط، فقال: إن المرأة عند المسلمين

ملكة متوجهة، بما لها من حقوق وواجبات، وبما تلقاه من الاهتمام والعناية، وإن المرأة الغربية لتحسدها على ذلك».

هل للمرأة المسلمة قضية

إن السؤال الذي يطرح نفسه هو: هل للمرأة قضية في مجتمعنا؟ ولماذا هذه الإثارة؟ هل ضاعت هويتها؟ أو هل هي مظلومة حتى تعلن هي أو غيرها المرافعة والمطالبة بحقوقها؟

فإذا كان لقضايا المرأة المطروحة ما يفسر أسباب إثارتها في مجتمعات معينة – نقول يفسرها ولا يُسوغها – فإنما لا نجد مسوغًا بل ولا تفسيرًا لطرح هذه القضايا وإثارتها في مجتمعنا حيث تسود فيه قيم الإسلام الضابطة لوضع المرأة في المجتمع.

إن قضية المرأة المسلمة ليست كقضية المرأة الأوروبية؛ فالأوروبية قد صار لها قضية لأنه ليس لمجتمعها منهج رباني يسير عليه، إنما يُشرِّع فيه البشر لأنفسهم من واقع أهوائهم ورغباتهم، فيظلمون أنفسهم ويظلمون غيرهم، وقد وقع الظلم هناك من تشريع – أو عُرف – وضعه البشر ثم اختاروا – أو اختار لهم الشياطين في الحقيقة – حلاً ساروا فيه حتى أوصلهم في النهاية إلى الخبال، من تفكك الأسرة وتحلل المجتمع وشقاء المرأة والرجل كليهما، وتشرد الأطفال، وجنوح الأحداث وانتشار الشذوذ والأمراض النفسية والعصبية والقلق والجنون والانتحار، وغيرها كثير.

أما المرأة المسلمة فهي ليست مظلومة حتى يكون لها قضية يتغنى بها المغرضون المفسدون أصحاب الأهواء والشهوات، وإن وقع على المرأة بعض الظلم من بعض الرجال ضعفاء النفوس فهو قد وقع

عليها من مخالفة المنهج الرباني الذي التزم به مجتمعها عقيدة و لم يلتزم به عملاً، فعلاج القضية هو الرجوع إلى المنهج الرباني الصحيح والالتزام به عقيدة وعملاً، وليس علاجه هو اتباع الخطوات التي سارت فيها القضية في الغرب، فخرجت من تخبط ولا تزال، لأن ذلك لن يحل مشكلة المرأة عندنا، كما لم يحلها هناك، وسيصل بها وبمجتمعها إلى المصير البائس ذاته الذي وصل إليه مجتمع المرأة الغربي من قبل [(١)].

إن هؤلاء الذين ينادون بما يسمى تحرير المرأة إما أنهم جاهلون بحقيقة ما تعانيه المرأة في المجتمعات الغربية أو منهزمون نفسيًا ومتأثرون بالثقافة الغربية ويريدون تطبيقها بصرف النظر عن سلبياتها وهم يرون زيف الحضارة الغربية أنموذجًا يحتذى بعد أن فتنهم بريق العيون الزرقاء للمرأة الغربية، فحجب عنهم رؤية القذارة النابعة من واقع هذا الانحلال الخلقي، **وهم أحد فريقين**:

*فريق يعلم جيدًا أن الطريق الذي تسير فيه القضية سيؤدي إلى انحلال المجتمع وتفككه كما حدث في المجتمع الغربي، وهو يريد ذلك، ويسعى إليه جاهدًا؛ لأنه من الذين يحبون أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا.

*وفريق مخدوع مستغفل؛ لأنه مستعبد للغرب لا يرى إلا ما يراه الغرب ويظن — في غفلته وعبوديته — أن سيده دائمًا على صواب.

---

(١) انظر: كتاب قضية تحرير المرأة، لمحمد قطب ص٤، ص٣٨.

وهذا الفريق وذاك مسخران لخدمة أعداء الإسلام داخل المجتمع الإسلامي.

وضع المرأة قبل الإسلام

لكي تعرف المرأة المسلمة النعمة التي هي فيها والمكانة التي تتبوأها في ظل تعاليم دينها القويم وما أعطاها الإسلام من حقوق وواجبات تحلم بها أي امرأة في العالم نقول: لكي تعرف المرأة كل ذلك عليها أن تعرف كيف كان وضع المرأة في الجاهلية وفي الحضارات القديمة.

فقد كانت عند العرب في الجاهلية سلعة تباع وتشترى يُتشاءم منها وتُزدري، تُباع كالبهيمة والمتاع، تُورث ولا ترث، تُملك ولا تملك، تُوأد وتُقتل ولا قصاص على من قتلها، للزوج حق التصرف بمالها بدون إذنها.

وفي الحضارة الرومانية كانت المرأة متعة مباحة حتى تحولت المعابد إلى أماكن تعاطي البغاء.

وفي الحضارة البابلية لا يحق للفتاة أن تتزوج قبل أن يفض بكارتها رجل غريب.

وفي الحضارة الإغريقية قَرَنَ «هزيود» الزوجة بالبيت والمحرات والثور، واعتبرها فلاسفتهم أصل الشرور.

وفي الحضارة الصينية كان بوسع الأب أن يبيع زوجته وأبناءه عبيدًا وأن تحرق الزوجة نفسها تكريمًا له، وهناك أغنية صينية تقول: «ما أتعس المرأة ليس في العالم كله شيء أقل قيمة منها».

وفي لحضارة الهندية اعتبر بوذا المرأة مصدرًا للرذائل وسوء السلوك، ودعا للابتعاد عنها.

وعند اليهود إذا حاضت المرأة تكون نجسة تُنجِّس البيت والمتاع والطعام والإنسان والحيوان إذا مسته، وبعضهم يطردها من بيته حتى تطهر ثم تعود.

وعند بعض النصارى أن المرأة ينبوع المعاصي، وأصل السيئات، وهي للرجل من أبواب جهنم.

وتتعد الجاهليات والنهاية للمرأة واحدة.

واقع المرأة في العصر الحديث

إن ظلم المرأة وإهانتها وازدرائها لم يقتصر عليها في العصور الجاهلية وحضارات الأمم السابقة فحسب، بل إنها لا تزال أيضًا في العصر الحديث تعاني الظلم والاستبداد والاحتقار في مجتمعات تدعي الحضارة والمدنية، وتطالب دائمًا – حسب زعمها – بحقوق الإنسان وتحرير المرأة ونحو ذلك، والمتأمل في واقع تلك المجتمعات الكافرة يرى كيف أن المرأة في أوروبا وأمريكا قد فقدت كل قيمتها وبلغت من الذل والشقاء حدًا لم تبلغه المرأة في أي مكان، فقد أصبحت ألعوبة تتدحرج من يد إلى يد، ويستبدل بها غيرها، إنها تشاهد في كل مكان، خادمًا في المطاعم والفنادق، وحمالة في الأسواق والطرقات، وسائقة للعربات، وتمرض الرجال وتقوم بخدمتهم، وتلبي رغباتهم وشهواتهم البهيمة بلا ضابط أو رادع.

إنها توجد في جميع المناسبات متاعًا رخيصًا متوافرًا في كل دكان، وقد انعزلت عن مكانتها العالية التي خلقها الله تعالى من أجلها حتى تهلهل لباسها، وصدئ قلبها، وأصبح شعارها السآمة والكآبة والقلق والحيرة، دون أن تفكر في غاية حياتها وعلو مكانتها، ومصيرها الذي تسرع إليه.

إن البنت في أمريكا إذا بلغت سن الرشد قبض أبوها يده في وجهها وقال لها: اذهبي فتكسبي وكلي، فلا شيء لك عندي بعد اليوم، فتذهب المسكينة تخوض غمرة الحياة وحدها، لا يبالون أعاشت بكدها أو بجسدها.

ولا يسألون هل أكلت خبزها بيديها أو بثدييها.

وليس هذا في أمريكا وحدها بل هو شأن القوم كلهم في ديارهم (١).

وقد ذكر أحد الأساتذة ممن درس في الغرب أن أستاذة جامعية كبيرة في بريطانيا بعثت إليه برسالة تشكو إليه فيها هموم المرأة الغربية ومآسيها وأنها في شبابها تكون فريسة للذئاب، يلاحقها طلاب المتعة ويقدمونها بحسب ما عندها من جمال، وفي كبرها تُرمى وتهمل حتى من أولادها وأقاربها، وفي حياتها الزوجية تكون مشغولة مهمومة خالية من المشاعر والأحاسيس الصادقة، عليها أن تقدم لزوجها المال وتقاسمه أعباء مصاريف المنزل بغض النظر عن راحتها أو راحة أولادها المادية أو النفسية، ثم تختم رسالتها بالقول: «إنني أتمنى أن أعيش زوجة مسلمة في بيئة إسلامية ولو لشهر واحد، حيث الزوج يغار على أهله ويحميهم ويحيطهم بحبه وحنانه، ويكلأ زوجته وأولاده برعايته ويحنو عليهم ويقدم لهم كل ما يستطيع من العون المادي متحملاً المسؤولية كاملة بشجاعة نادرة»(٢).

---

(١) انظر: كتاب رسالة إلى حواء – محمد العويد ص٩٠-٩١.

(٢) انظر: مجلة الجندي المسلم عدد ٧٠.

هذه هي حال المرأة الغربية وما تعانيه من بؤس وشقاء في حياتها، والتي ينادي دعاة التحرير والتغريب في بلادنا المرأة المسلمة بتقليدها والسير على منهجها.

فنقول لمثل هؤلاء المنهزمين: من أجدر بتقليد من؟ أليست المرأة الغربية الضائعة التائهة التي لا تعرف لها رسالة ولا غاية من حياتها سوى اللذة والعبث، أليست هي أولى بتقليد المرأة المسلمة التي تعرف الطريق التي تسير فيها والغاية التي تسعى إليها والرسالة التي تؤمن بها؟!

ألا يقرأ هؤلاء شكاوى الغربيات العاقلات، وشكاوى الغربيات اللواتي صحون من غفلتهن؟

ألا يقرؤون كلام من أسلم منهن وهن يقارنَّ بين ظلام كنَّ يعشن فيه قبل إسلامهن ونور انتقلن إليه بعد دخلوهن في الإسلام؟! أم أنهم دعاة فتنة وشر وهواة فساد ورذيلة[١].

ونقول أيضًا للمرأة المسلمة بعدما عرفت وقرأت عن حال المرأة الغربية وما وصلت إليه من وضع مزري وما هي فيه من التعاسة والشقاء، نقول لها: احمدي الله على ما أنت فيه من نعمة كبيرة وما أعطاك الله من حقوق وواجبات كثيرة، وإياك إياك أن يستدرجك دعاة الضلالة ويضحكون عليك كما ضحكوا على غيرك، إياك أن تلتفتي إلى هذه الدعاوى الكاذبة أو تسمعي لهذه الصيحات العارمة التي يطلقونها وينادونك بها، ويشجعونك على التمرد والتحرر من تعاليم دينك وأخلاقك وعاداتك الإسلامية التي نشأ عليها.

---

(١) انظر: كتاب رسالة إلى حواء – محمد العويد ص٤٢٢.

إنهم يريدون منك أن تكوني فاجرة عاهرة ماجنة، يريدون أن تكوني بهيمة في مسلاخ بشر – حاشاك ذلك يا ابنة الإسلام – كل ذلك حتى تصيري إلى ما صارت إليه المرأة الغربية من تدهور وضياع، وتصيري لعبة في أياديهم يوجهونك حيث شاؤوا وينالون منك ما أرادوا.

إن هؤلاء المفسدين يتربصون بك الدوائر، يريدون نزع حجابك ونهش عفافك غير مبالين بعد ذلك بأي واد تهلكين.

فأغيظيهم وقولي لهم بلسان حالك ومقالك:

دعهم يعضُّوا على صُـــم الحصـــى كمـــدًا

من مات مـــن غيظـــه منـــهم لـــه كفـــن

إن آمالنا بك أختي المسلمة أن تكوني أقوى من التحديات وأن تعتزين بدينك وتتمسكي بعقيدتك ومبادئك وأخلاقك، فالدنيا قصيرة، والسعادة فيها في تعظيم حرمات الرب، واتباع منهج الإسلام الذي أنصفك ورفعك وأعلى قدرك، وفيه ما يسعدك ويصلحك دينًا وأخرى..

وفقك الله وحفظك من كل سوء، وجنبك كل مكروه، وسترك في الدنيا والآخرة.

* * * *